التنوع العرقي والثقافي
"تضاد أم تضامن"

موفق ويسي محمود(*)

مقدمة

يقترن الحديث عن التنوع العرقي والثقافي في أحيان كثيرة بإشكالات سياسية واجتماعية تواجهها المجتمعات ولعل تتبعا للأخبار التي تنقلها وكالات الأنباء عن المصادمات والحروب الصغيرة التي تشن هنا وهناك تحت ذرائع طائفية وعنصرية يوضح لنا مدى عمق مشكلة الاختلاف بين الجماعات الإنسانية واتساعها.

ولكن إذا أدركنا أن عالم السياسة ليس هو المجال الصحيح لاختبار صحة ودقة ما يقال ندرك أهمية ان يدلي الباحثون والمختصون بدلوهم في هذا الموضوع لان موضوعية الباحث وعدم تحيزه – وهما شرطان ضروريان للبحث العلمي – كفيلان بمناقشة المواضيع الساخنة بعيدا عن الانفعال والتطرف ... وان كان هذا لا يعني بالضرورة عدم انسياق البعض وراء الأفكار النمطية الجاهزة كما انه لا يعني عدم استخدام الساسة للحقائق الموضوعية بالطريقة التي تناسب أهدافهم.

(*) أستاذ الانثروبولوجيا الثقافية المساعد - كلية الآداب / جامعة الموصل

ان العالم يزخر بالثقافات الفرعية، وتنمو هنا وهناك مثل النبات البري شجيرات ثقافية صغيرة قد يقيّض لبعضها النمو ولبعضها الآخر الجفاف فالكثير من الجماعات تسعى لتمييز أنفسها ايديولوجيا واجتماعيا وتنظيميا وتخلق لأجل ذلك العشرات من الشارات والطقوس التي تحاول أن تخلق التشابه بين أعضائها من جهة وتميزهم عن الآخرين من جهة أخرى، ففي وسط عالم تسعى الشركات العملاقة ووسائل الاتصال الجماهيري ذات القدرة التأثيرية البالغة إلى تنميطه وفق ما يسهل أدارته تنبثق هنا وهناك أشكال من الاحتجاجات الصامتة والعلنية وتبرز الحاجة لتعميق أو حتى إيجاد الاختلاف.

اما المجتمعات ذات العمق التاريخي والتي تساهم فيها ثقافات فرعية إلى جانب الثقافة الرئيسة فإنها كانت ولا زالت أوفر حظاً لأن عمليات التثاقف (Acculturation) التي قامت بين جماعاتها لم تسع لإذابة التنوع وإنما قامت العلاقة على أساس الفهم وقبول الاختلاف وقدمت كل جماعة أو ثقافة ما لديها على بساط ثقافة أساسية مشتركة، فكانت لديها الفرصة لأن تحتفظ بتنوعها في الوقت نفسه الذي قويت فيه وحدتها، وهذا البحث محاولة متواضعة للإشارة إلى هذا النوع.

مشكلة البحث

التنوع الثقافي ليس دائما مجلبة للصراع، كما يحاول ذوو الأطماع ان يوحوا من أجل بذر بذور الشقاق لتسهل عليهم عمليات الابتلاع.

فالتنوع الثقافي يمكن ان يكون أساسا للتضامن الاجتماعي لان الاختلاف لا يكون مصدرا للمشاكل إلا إذا افتقد الأرضية السليمة والإطار العام الذي يجمع هذه الاختلافات ويحدد العلاقات فيما بينهما.

فإذا كانت الاختلافات قد استخدمت أو أوحت بالصراع فإن الوقت قد حان للنظر إليها من زاوية جديدة.

هدف البحث

يهدف هذا البحث إلى توضيح فكرة مفادها أن التنوع العرقي والثقافي يمكن أن يكون عامل إثراء للثقافات المشاركة التي تقوم بينها أواصر تاريخية وجغرافية.

تحديد المفاهيم

1. العرق Race

مجموعة من الأشخاص ذوي صفات جسدية وربما عقلية مشتركة[1] أو هو عدد من السكان يكشف فطريا عن تركيب جيني مميز يظهر كمجموعة مميزة من السمات البدنية[2].

ويعرفه معجم العلوم الاجتماعية بأنه فصيلة من البشر تتميز عن غيرها من

(1)Boas Franz, Race, langage and culture, the free press, New York, 1966, p. 5.

(2) HOEBEL, E-Adamson, Anthropology: the study of man, Mc Graw-Hill, New York, 4th Ed. 1972, p. 208.

الفصائل الأخرى بالتكوين الفيزيقي (البناء الجسمي) والمتوارثات البيولوجية وذلك على الرغم من وجود فروق فردية في نطاق هذه المجموعة ... والخصائص المميزة للفصائل الجنسية كثيرة ومتعددة بعضها بسيط وظاهري مثل لون البشرة وشكل الشعر ولونه وشكل الأنف ولون العينين وطول القامة وقصرها والبعض الآخر دقيق ويحتاج إلى أجهزة قياس خاصة مثل تركيب عظام الرأس والفك والبناء الفيزيقي لبعض أعضاء الجسم(3).

وهذا التعريف هو الذي سنعده التعريف الإجرائي في هذا البحث لشموليته.

2. الثقافة Culture

لن ندخل في هذا المقام الضيق في المناقشات التي لا زالت دائرة حول الثقافة والحضارة والمدنية، ولكن سنشير إلى ان "ثقافة" مصطلح سيستخدم في هذا البحث مرادفا لمصطلح " حضارة بوصفها ترجمة لكلمة " Culture فالثقافة مجموع من العناصر له علاقة بطرائق التفكير والشعور والسلوك وهذه الطرائق صيغت في قواعد واضحة نوعا ما والتي كان جمع من الأشخاص قد اكتسبها وتعلمها وشارك فيها – تستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معا من اجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة(4).

ويعرفها كلايدكلوكهون" بأن ثقافة مجتمع من المجتمعات هي نظام تاريخي المنشأ يضم تصاميم صريحة أو ضمنية للحياة وينزع أن يكون نمطاً يشترك فيه

(3) مدكور، إبراهيم، وآخرون، معجم العلوم الاجتماعية، اليونسكو، الهيأة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص431.

(4) روشيه، غي، مدخل إلى علم الاجتماع العام، تعريب د. مصطفى دندشلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت/ 1983، ص137.

جميع أعضاء فئة معينة أو قطاع خاص معين منها[5].

تنوع ثقافي

يشير هذا التعبير إلى الاختلافات الثقافية العميقة بين شعوب العالم المختلفة، أي الاختلافات بين النظم الاجتماعية والعلاقات والتقاليد التي تسود الشعوب، أو الاختلافات الثقافية في الشعب الواحد من عصر إلى آخر[6].

وفي هذا البحث سنستخدم مفهوم التنوع الثقافي بصورة اقل حدة لنشير إلى الاختلافات بين الجماعات عامة في النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد وغيرها من العناصر المميزة كاللغة والأزياء.

الثقافة الفرعية

الجماعات والفئات التي تتمايز عن غيرها بانتسابها العنصري أو باختلافها الديني أو اللغوي أو أي شكل من أشكال الاختلاف الذي يبرز في أنماط حياة وسلوك أفرادها، وهي على الرغم من تميزها هذا تبقى مرتبطة بالثقافة العامة الأساسية.

التضامن الاجتماعي

ذلك الشعور بالحاجة إلى التعاون مع أفراد آخرين يشعر الفرد أو الأفراد بأنهم مشابهين له أو لهم في انتماءاتهم العرقية أو الثقافية أو الفكرية. والذي يتوقع منه تحقيق أهداف مشتركة ويبرز في أشكال المشاركة الاجتماعية المتنوعة.

---

(5) كلوكلهون، كلايد ووليم كيلي، مفهوم الثقافة في الانثرويولوجيا وأزمة العالم الحديث تحرير رالف لنتون، ترجمة عبدالملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1976، ص178.

(6) مدكور، إبراهيم، مصدر سابق، ص188.

المبحث الأول

الاختلاف العرقي والتنوع الثقافي

الاختلافات في اللون وشكل الجسم وطبيعة الشعر وغيرها من السمات البدنية التي يدل عليها مفهوم العرق استخدمت في الغالب استخداماً سيئاً، خاصة عندما تحولت إلى أداة لتصنيف الجماعات هرميا، ونسبت إليها صفات موازية من الذكاء والقابلية على التكيف والقدرة على الإنجاز الحضاري والتقني وكتغذية عكسية أصبح مستوى الإنجاز المادي لمجتمع ما دليلاً على مكانته في هرم التفاضل العنصري مما أعطى للسياسيين والمنظرين العنصريين الفرصة أو المسوغ الأيدلوجي لممارسة سياسة التمييز العنصري وتسويغ سياسات اعتدائية تجاه الشعوب الأخرى ومع إقرارنا بأن هذا المفهوم كان موجودا دائما إذ حاولت الجماعات على مدى تاريخها وضع حدود فاصلة بينها وبين الجماعات الأخرى وعرفت المجتمعات البدائية أشكالا من هذه التصنيفات البسيطة إذ إن معظمها تطلق على نفسها تسميات تعني الشعوب "الأصلية أو الفاضلة" أو المختارة وفي الوقت نفسه تطلق على الآخرين نعوتا تنزع عنهم الشرط البشري فتصفهم بأنهم قردة الأرض أو بيض القمل[7] إلا أن هذا في الغالب كان نوعا من الحماية في أوقات

(7) شتراوس، كلود ليفي العرق والثقافة/ في/ مقالات في الاناسة، ترجمة دكتور حسن فبيسي دار التنوير والطباعة والنشر بيروت 1983 ص288.

تسودها العداءات والانعزال فهي بذلك تحمي كيانها وتحافظ على تضامنها من خلال خلق نوع من الفخر أو الاعتزاز بالانتماء.

ونحن نعلم ان اليونان وفي أوج حضارتهم كانوا يطلقون على كل الجماعات الأخرى اسم (البرابرة) وبالتالي يكونون هم الشعب المتحضر الوحيد.

لقد كانت هناك دائما محاولات لوضع الحدود أو لفهم الحدود الطبيعية أو الموضوعية بين الجماعات وقد اختلفت هذه المحاولات بحسب التوجهات الأيدلوجية فها هو "هيرودتس" المؤرخ يجوب العالم القديم ويؤشر غرائب وخوارق العادات وفي هذا المجال يمكن أن نضع محاولة ابن خلدون لتصنيف الاختلافات بين الجماعات على أساس الأقاليم الجغرافية[8] وقد استمرت، محاولات التصنيف في الكثير من البلدان وفي مجالات علمية كثيرة واستخدمت استخدامات شتى فالنازية الهتلرية مثلا أبدت انتباها واسعا اتجاه التعاليم العرقية وتناول الجهاز الدعائي لألمانيا الهتلرية في شي من المبالغة أفكار اثنين ممن اهتموا بالموضوع هما "غوبنيو" و "تاشير دي لابوج" خاصة الثاني الذي عرض في كتاباته مبدأ أساسياً مركزياً يتمثل في التفوق الفيزيائي والعقلي والخلقي الذي يملكه انموذج سلالي معين[9].

فالمشكلة إذن ليست في الدراسة ومحاولات الفهم ضمن ما تسمح به القواعد العلمية الأساسية والأدوات الموجودة لدى الباحث وبحسب عصره ولكنها تكمن في

(8) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة 1957 ج1 ص337.

(9) بواريبه، جان، تاريخ العرفية، ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدات بيروت، 1974، ص66.

التسييسات وفي الأشكال المختلفة لسوء الاستخدام شأنها في ذلك شأن الكثير من المفاهيم والمنجزات العلمية.

فالصراعات من أجل السلطة والنفوذ تسمح باستغلال كل ما يقع تحت أيدي المتصارعين فاستخدمت بعض العلامات الفارقة لبعض الجماعات من أجل تحقيق روابط قوية بين أفرادها تسمح لها بأن تكون وحدة أمام الوحدات الاجتماعية الأخرى وهذه العلامات متنوعة، فقد تكون عرقية أو غير ذلك فاللون مثلا قد يكون علامة فارقة كالزنوج في أمريكا والإقليم قد يكون هو العلامة (كوبيك في كندا) أو المذهب أو اللغة أو القبيلة.

وهكذا تطغى إحدى هذه السمات على السمات الأخرى ويعرف الأفراد بها أو يشعرون من خلالها بالانتماء إلى الجماعة وتبقى بعد ذلك رهناً لظروف متنوعة التأثير، وهذا ما يحدد كونها أو فاعليتها.

ولكن السؤال الذي يطرح بإلحاح هل هناك فعلا مسوغات علمية لتقسيم الجماعات عراقيا؟ وان وجدت فهل هي ذات علاقة بالثقافة أو درجة التقدم.؟

من الناحية العلمية توصل العلماء إلى اتفاق عام على الاعتراف بأن الجنس البشري واحد أي أن الناس جميعاً ينتمون إلى النوع ذاته (الإنسان العاقل HOMO Sapiens) وعلى ان الفوارق القائمة بين الجماعات البشرية المختلفة نتجت عن فعل عوامل التمايز التطورية مثل الانعزال والتحول والتثبيت العشوائي للجسيمات المادية التي تتحكم في الوراثة[10]. فالفوارق البدنية بين الجماعات تظهر نتيجة

(10) مونتاغيو، اشلي، الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي، ترجمة المقدم حسن احمد بسام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط2، 1981، ص19.

لتورايخها البايولوجية المختلفة إلى حد ما، وهذه الجماعات تمثل التوزيعات المختلفة التي يظهر بها لحن واحد[11].

فقضية التأكد من صحة العرق أو نقائه مستحيلة لأنها تغيب في أزمنة سحيقة وهي لا تعدو كونها فرضية أطلقت لتوضيح الاختلافات القائمة حاليا على الرغم من انه حتى غوبينو رائد النظرة العنصرية كان يدرك تماما ان الأعراق لم تكن ظاهرات خاضعة للملاحظة بل كان يسلم بوجودها تسليما بوصفها الشروط المسبقة لتنوع الثقافات التاريخية التي كانت تبدو له مستعصية على التفسير بطريقة أخرى[12].

وكل ما نستطيع ان نتابعه في هذا المجال هو مجموعة من السمات الخاصة لبعض العائلات التي يمكن تتبع انحدارها البايولوجي لفترة مناسبة من الزمن، إلا انه من المستحيل تأكيد ذلك في المجتمعات الحديثة، إذ إن الدراسات أوضحت أنه في المجتمعات المعزولة حيث يكون الزواج داخلياً يمكن ملاحظة اختلافات اقل بين الأفراد منها في المجتمعات الأكبر[13]. كما ان قسما كبيرا من الاختلافات في السمات البدنية يعود إلى تحديدات خاصة بالمناخ وشروط الحياة[14].

اما بالنسبة للعلاقة بين السمات الجسدية والخصائص الذهنية فإنه أصبح من المعترف به أنه حتى اختبارات الذكاء لاتمكننا من التفريق دونما وقوع في الخطأ

(11) المصدر نفسه، ص 20.

(12) شتراوس، كلود ليفي، مصدر سابق، ص224.

(13) Boas, Franz, op. cit, p5.

(14) Ibid. P7.

بين الخصائص الذهنية الناشئة عن قدرة فطرية وبين تلك الناتجة عن مؤثرات البيئة والتدريب والتعليم.

وموجز القول ان الإنجاز الوسط لأعضاء كل جماعة سلالية يكاد يكون واحداً إذا ما كان للجميع المستوى ذاته من الفرص الثقافية لتحقيق امكاناتهم[15].

فالمسألة ليست في وجود الفوارق الجسمانية بين الأقوام والجماعات فهذه نتيجة طبيعية للكثير من المؤثرات البيئية والبايولوجية، ولكن ان تعزى سمات عقلية وثقافية وبشكل قاطع ونهائي إلى بعض هذه المجموعات استنادا إلى مقولات تربط بين هذه السمات وبين العوامل الوراثية فهو الأمر الذي كان السبب في إحداث إشكالات واسعة في المجتمع الإنساني وقاد إلى ضروب من الصراع كان لها الكثير من النتائج المؤسفة في الوقت الذي يقرر فيه الانثروبولوجيون أن كل الأجناس قادرة بالتساوي على التطور الثقافي وأن الثقافة تعمل بمعزل عن الإرث العرقي[16].

ما يهمنا بالأساس من هذا كله التأشير بأن الصلات بين العرق والثقافة قد طرحت بشكل سيئ وهنا تدفعنا الضرورة لمحاولة الإجابة على السؤال التالي مالعلاقة بين التنوع الثقافي والتنوع العرقي؟

لابد من الإقرار انه من الصعوبة الربط بين أنماط من السلوك بالغة التعقيد من النوع الذي نجده في ثقافة ما وبين الخصائص الناتجة عن موروثات جينية محددة.

(15) مونتاغيو، اشلي، مصدر سابق، ص81.

(16)Hoebel. E. Adamson, op. cit. p. 230.

وفي الوقت نفسه لا يمكن أن ننفي أنَّ وجود جماعة من الأفراد لفترة طويلة من الزمن يحدث تشابهات جسمانية ناتجة عن عمليات العزل والتراكم الجيني وفق محددات بيئية طبيعية أو اجتماعية.

أي انه في الوقت نفسه الذي تحدث فيه عمليات التراكم الثقافي الناتجة عن العيش سوية فإن عوامل العزل والتزاوج التي تحددها الثقافة تنتج تراكمات عرقية تسم هذه الجماعة بسمات خاصة بحيث تبدو وكأن الخصائص ناتجة عن السمات العرقية وليس العكس والسبب هو ان الصفات الجسمانية اكثر بروزا واسهل في الملاحظة.

كما ان السمات الثقافية التي تميز حضارة ما تحدد نوع علاقاتها بالجماعات الأخرى والغالب ان تسعى هذه الجماعة إلى تأكيد ذاتها في مواجهة هذه الجماعات المختلفة عنها وتضع بالتالي المسوغات التي تعتقد بأنها كفيلة بالحفاظ على هويتها وتعمق طريقة العيش التي تنتهجها ولهذا أهمية كبيرة لإبقاء الجماعة وأحداث التماسك الاجتماعي بين أفرادها والحفاظ على مؤسساتها من الانهيار أو على سماتها الثقافية من الانصهار في مواجهة مؤسسات وعناصر الثقافات الأخرى.

إذن على كل ثقافة ان تخلق هذا الاقتناع العميق بصحة ما درجت عليه والذي يتجسد في الهرم القيمي وفي البناء المعياري الذي يستدمجه الأفراد من خلال عملية التنشئة الاجتماعية.

اما في المجالات التي لا يبدو ان بالإمكان إنكار أفضليتها مثل الجوانب المادية وعلى الأخص المسائل التكنلوجية فإن المقارنة تأخذ أحد وجهين فإما أن يعترف بهذا التفوق في الجانب التكنلوجي مع إنكار ضرورة أن يكون هذا التفوق

قرينا للتفوق القيمي والاجتماعي والمؤسساتي، وإما أن يربط هذا التفوق بنتائج قيمية مهددة لقيم الجماعة بحيث يؤدي بالنتيجة إلى رفض الإقرار بأهمية التفوق. أو ربما التنكر للثقافة والقيم المحلية ولعل من المفيد الإشارة إلى أن التفوق التكنولوجي الذي استطاع بواسطته الاستعمار السيطرة على بلدان العالم الثالث كان الدافع نفسه إلى زيادة التمركز الذاتي للثقافات في الدول المستعمرة وزيادة الشعور بأهميتها بين أبنائها.

المبحث الثاني

التنوع الثقافي والتضامن الاجتماعي

في المجتمعات المتنوعة الثقافات والمجتمعات ذات التنوع العرقي تبرز في الوقت الحاضر مسألة التضامن الاجتماعي.

ويبدو أن الموضوع لم يدرس في هذا الإطار حيث دأب المهتمون على النظر في هذا الموضوع بوصفه عاملًا تجزيئياً ويبدو أن النظرة تهمل إطاراً مهماً هو إطار الدولة، حيث إن الجديد في الأمر أن هناك حدودا سياسية للدولة لم تعد تتطابق مع الحدود العرقية أو مع الحدود الثقافية.

أي اننا نجد أنفسنا أمام ثلاثة أشكال من الانتماءات إذا صح التعبير، الانتماء الثقافي، والانتماء العرقي والانتماء إلى الدولة السياسية هذه الانتماءات تخلق إشكالية جديرة بالاهتمام وهو الأمر الذي ستحاول المساهمة فيه بشكل متواضع.

وكبداية لابد من التذكير بأن هناك عددا من الثقافات اكثر بكثير من عدد النماذج العرقية التي قدمها مؤيدو التصنيف العرقي، وهذا يعني حقيقة بسيطة تتمثل في عدم تطابق الحدود العرقية مع حدود ثقافتها وبملاحظة بسيطة أخرى فإن الجماعات العرفية تتكون من ثقافات عديدة ومتنوعة، مع احتمال اشتراك اكثر من جماعة عرقية واحدة في ثقافة واحدة.

ولو حاولنا تطبيق مفهوم التضامن الاجتماعي للإجابة على السؤال الذي طرحه دور كايم كيف يستطيع جمع من الأفراد ان يكونوا مجتمعا وكيف يتمكن الأفراد من الإجماع في الرأي والاتجاهات.

تبدو الإجابة بسيطة عندما نتحدث عن "ثقافة واحدة" أو "جماعة واحدة" إذ إن التشابه بين الأفراد يولد المشاعر نفسها وتجمعهم نفس القيم والعقائد والطقوس نفسها، أي أن وحدة هذه الجماعات تتبع من تماثل أفرادها وهو ما يطلق عليه التضامن الميكانيكي[17] وهو الشكل الذي توجد عليه المجتمعات التقليدية ولا تبدو المسألة مختلفة كثيرا في الحالتين العرقية أو الثقافية لأن العناصر المشتركة سوف تولد سمات مشتركة كما ألمحت إليه سابقا.

ولكن الموضوع يصبح أكثر صعوبة عندما نتحدث عن ثقافات متنوعة وجماعات عرقية متنوعة في إطار سياسي، إذ تواجهنا مجموعة من الاحتمالات لعل أسهلها أن تبقى التنوعات الثقافية في داخل الإطار السياسي ولكن تبدو

(17) النوري، قيس، وعبدالمنعم الحسيني، النظريات الاجتماعية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، مطابع جامعة الموصل، 1985، ص 106.

المسألة أكثر تعقيداً عندما لا يحدث التطابق بين أي من هذه التنوعات، الثقافية والعرقية والسياسية.

ان الفكرة التي توجه هذه السطور تنبع في أساسها من شكل التضامن العضوي الذي طرحه دور كايم مع تغيير طفيف ليناسب المقام. فالتضامن العضوي الذي عرضه دور كايم يعتمد على إجماع واتحاد يعبران عن وجودهما في حالة من الاختلاف، إذ لا يكون الأفراد في هذا الصنف من المجتمعات متماثلين بل يتباينون ونتيجة اختلافهم يتحقق للمجتمع إجماع تضامني عام[18].

ورأينا يعتمد على إقامة توازٍ أو على الأصح تطابق بين المستويات الثلاثة، كما لو اننا نضع خارطة التنوع العرقي فوق خارطة التنوع الثقافي، ونضع الاثنتان سوية فوق الخارطة السياسية للدولة فما الشكل الذي نحصل عليه، سنلاحظ أن حدود التقسيمات الثقافية تجزيء التقسيمات العرقية أو أن التقسيمات العرقية ستشمل أكثر من ثقافة واحدة أي أن كل واحدة منهما ستعبر حدود الأخرى. وهذا يعني أن الاختلافات الناتجة عن التنوع الثقافي يمكن أن تعبر عن تنويعات لجماعة عرفية واحدة فيكون العرق أرضية موحدة، كما أن الثقافة الواحدة ستضم تنويعات عرقية تكون الثقافة أرضية موحدة لها.

وهكذا ما يفرقه التنوع الثقافي يجمعه الأصل العرقي، وما يفرقه التنوع العرقي تجمعه الثقافة الواحدة فيكون كل منهما عامل وحدة للآخر.

وهذا الأمر سيؤدي بالتالي إلى أشكال من الاتصال الاجتماعي والثقافي يعمل بمرور الزمن على أحداث تبديلات في الخارطة باتجاه المزيد من التوحيد

(18) المصدر السابق نفسه.

وتكون بالتالي عاملاً مؤثراً من عوامل التضامن، وذلك لأن الاختلافات القائمة أيا كان مصدرها ستكون مصدرا للإجماع التضامني وستقوم الأرضية الثقافية بالدور الممهد لقبول هذه الاختلافات استنادا إلى مبدأ ان التباين يؤدي إلى التضامن.

فإذا أضفنا إلى هذا عامل الوحدة السياسية الذي تحققه الدولة الواحدة ذات الإمكانيات التشريعية والتنفيذية اصبح لدينا عامل مضاف لتقوية الاتجاه نحو التقارب. خاصة إذا استطاعت الدولة أن تخلق اتجاهات عامة تهيئ لعوامل الانتماء السياسي ان تسمو فوق عوامل الانتماء الأضيق وتخلق الفرصة لمزيد من الالتقاء.

أي ان المطلوب توسيع قاعدة الانتماء من انتماء ضيق إلى انتماء واسع يتمثل هنا في الكيان السياسي للدولة وهو ما يعبر عنه دور كايم من ان انخراط الأفراد واتحادهم ومشاركتهم بعضهم. بعضا ينجم عنه بالضرورة حقيقة نوعية جديدة تتمثل في انبثاق وعي جديد يعبر عن الواقع الاجتماعي برمته وهو ما يسميه دور كايم الوجدان أو الشعور الجمعي[19].

ومثلما تتميز الحقيقة الجمعية بالخصائص والسمات التي تسمو على الحقيقة الفردية على اعتبار ان الحقيقة الجمعية إنما تعبر عن ما هو، "فوق الفردي" فالمجتمع إذن هو ذلك الكل المعقد الذي يسمو فوق الأفراد[20]. كذلك يمكن لحقيقة الدولة السياسية ان تسمو فوق الحقائق الجزئية فتصبح "فوق ثقافية" و "فوق عرقية" وتخلق بالتالي من أجزائها كلا متكاملا.

(19) إسماعيل، تباري محمد، ما وراء علم الاجتماع، الهيأة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية، ج. م. ع. 1978، ص100.

(20) المصدر نفسه، ص11.

يتطلب هذا ويخلق في آن مرتكزات ثقافية ذات طبيعية شمولية تستمد عناصرها من التنوع الثقافي ذاته.

ويصبح الوضع اكثر ملاءمة لأحداث مثل هذا التوحيد عندما تكون هناك ثقافة رئيسة أساسية لا تتعارض مع الثقافات الفرعية وتكون في طبيعتها وجوهرها غير عنصرية أو منغلقة

ولتوضيح هذه الفكرة سأحاول ان أجد لها مقابلا موضوعيا في قطرنا العراقي.

فسكان العراق يتكونون من قومية عربية كبيرة وقوميات أخرى صغيرة هي الكردية والتركمانية بشكل أساس وداخل هذه التقسيمات القومية نجد تنويعات ثقافية تختلف سماتها في كثير أو قليل سواء في مجال اللغة أو المعتقدات الدينية أو أساليب التنشئة أو الأزياء الشعبية أو في أشكال من العادات والتقاليد. وهناك اختلافات في أساليب وطرق العيش بين المدينة والريف والبادية.

فعلى سبيل المثال توحد القومية العربية بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب، فنجد سلماً قيميا متقارباً في الأماكن التي يعيشون فيها معا وتوحد القومية الكردية بين الأكراد المتحدثين باللهجة السورانية والأكراد المتحدثين باللهجة البهدينانية، وفي الوقت نفسه توحد الديانة الإسلامية بين العرب والأكراد والتركمان وتخلق اللغة الكردية بلهجتها البهدينانية وشائج مهمة بين الأكراد المسلمين واليزيدية.

وفي بعض المناطق يشترك أفراد مختلفون في انتماءاتهم العرفية في نمط ثقافي فرعي واحد بحيث لا يمكن للملاحظ ان يجد أية فروق ذات دلالة إلا بعد فترة

طويلة نسبيا فهم يتشاركون في الزي والمسكن والمهن كما يتشاركون في أعيادهم واحتفالاتهم(*).

إني أزعم أنّ التنوع الثقافي ساعد على إضفاء حيوية بالغة على مسألة التضامن الاجتماعي في العراق وذلك لأنه منع كل ثقافة من الانغلاق على نفسها وبالتالي فسح المجال أمام الجميع لتبادل العناصر الثقافية بحيث ان هرما موحدا تقريبا من القيم ودوائر متقاربة من المعايير تجمع الجميع، بحيث اصبح في مقدور الجميع التوصل إلى فهم حقيقي للاختلافات واحترامها ويستند ذلك إلى إطارين.

الأول: الثقافة العربية الإسلامية التي بفضل طبيعتها الشمولية استطاعت استيعاب الاختلافات ومنحت إطارا عاما جمع هذه التنوعات.

الثاني: إطار الدولة السياسي الذي استطاع لفترة طويلة من الزمن منح جميع أعضاء هذه المجموعات الثقافية أو القومية شعورا بالانتماء إلى بلد أم.

هذا الوضع هو ما يمكن إسناده من خلال تطوير العوامل التي أدت إليه وإسنادها بعوامل أخرى لعل أهمها.

أ. أجهزة الإعلام: فقد عرضت أساليب الاتصال الحديثة الأفراد والمجتمعات إلى تأثيرات وتيارات مختلفة ومتنوعة فمارست أدواراً مهمة في تكوين الاتجاهات وتحديد مسارات الرأي العام، ومن هذا تأتي خطورتها وضرورة السيطرة على المدخلات الفكرية والثقافية وتحديدها بما يناسب ويخدم الاتجاه المطلوب تأكيده.

(*) يلاحظ مثل هذا الاشتراك في منطقة (بعشيقة) شمال العراق بين ساكنيها من المسلمين والمسيحيين واليزيدية.

ب. التنظيمات السياسية: ويتوقع منها ان تكون ذات اثر كبير في زيادة وتعميق التضامن الاجتماعي خاصة إذا ما كانت أهدافها فوق الأهواء والمطامح الضيقة وقامت على أسس وطنية وقومية فتكون بذلك أداة فعالة لتغيير الاتجاهات وتجاوز القوالب النمطية.

ج. أجهزة الدولة: يمكن للدولة بمعناها السياسي وبأجهزتها التشريعية والتنفيذية والقضائية ان تكون من أهم العوامل المؤدية إلى زيادة التضامن والتماسك الاجتماعي من خلال ما تشرعه للجميع دون تفرقه، وفي كيفية تنفيذ التشريعات دون تمييز بحيث يشعر الجميع بأنهم سواسية وتنتفي بالتالي الحاجة إلى التضامن الآلي مع الجماعات المحلية الصغيرة لأغراض الحماية.

هذه العوامل ساعدت ويمكن ان تساعد دائما على الاحتفاظ بحيوية ثقافية قائمة على التباين والتازر، ومن خلال التفاعل المستمر تنمو وتتطور صيغ موحدة ومتساندة تحدوها أهداف مشتركة.

ان هذا الكلام ليس بعيدا عن الواقع وحالة العراق مثال واضح على هذه الإمكانية، فإذا ما استثنينا الأوضاع التي نشأت عن تدخلات القوى والمصالح الدولية الخارجية ومحاولات تسييس الانتماءات الثقافية أو العرقية، نجد ان مبررات التضامن كانت دائما أعلى وأقوى من عوامل التجزئة، إذ ان حالات النجاح أو الإخفاق أصابت الجميع ولم تكسب مجموعة معينة امتيازاتها على حساب الأخرى. وهذا الأمر الذي يمكن توضيحه بسهولة يعمل على منع توجيه اللوم أو تحميل المسؤولية ضد الجماعات الأخرى بل على العكس كان الجميع شركاء في أوضاع واحدة ناتجة عن تهديدات ضدهم جميعا.

الخلاصة

تمثل الاختلافات العرقية حقيقة علمية خضعت للدراسة والتجريب إلا ان هذه الاختلافات لا تمثل بالضرورة وضعا تراتبيا للجماعات العرقية يضع بعضها في موضع التفضيل بالنسبة للبعض الآخر، الأمر الذي قرره بعض سياسيو التمييز العنصري لتسويغ الفصل العنصري، بوصف الجماعات العنصرية المختلفة لا يمكن ان نتعايش فيما بينها ولا توجد طريقة لتنسيق العلاقات فيما بينها غير هيمنة الجماعات العنصرية التي تنحدر من أصول عرقية متفوقة "على الجماعات الأخرى "المتواضعة الأصول" كما حدث في ألمانيا النازية ويحدث في فلسطين المحتلة وجنوب أفريقيا.

وقد ثبت أن هذا الادعاء باطل وأن الاختلافات الثقافية لا تتطابق بالضرورة مع الجماعات العرقية ولا يوجد بين السمات الثقافية لمثل هذه الجماعات وسماتها "العرقية" أية صلة وراثية ثابتة بالبرهان.

كما أنه لم يقم أي دليل علمي على ان الخصائص الذهنية يمكن ان تدخل كجزء من التصنيفات العرقية.

وهذا يعني ان التنوعات الثقافية تمثل تكيفات إنسانية لأوضاع مختلفة وجدت الجماعات نفسها فيها واختارت أو اضطرت لاختيار أنماط للعيش مناسبة لها.

وبالتالي يمكن أن يكون التنوع الثقافي وسيلة لإثراء الخبرة الإنسانية إذا ما تحقق اتصال ثقافي قائم على الفهم لضرورة الاختلاف والتباين.

وعلى مستوى المجتمع الواحد يمكن أن يكون التنوع الثقافي إحدى ركائز التضامن الاجتماعي إذا ما نظر إليه بوصفه تضامناً عضوياً يقوم كل جزء بوظائفه الرئيسة في إطار الوحدة الكلية المجتمع، ويتطلب هذا وجود أهداف عامة تسمو فوق الأهداف الخاصة وتكون الثانية موجهة لتصب في الأولى، أي ان تعزيز أو حتى خلق الإطار العام إنما هو مطلب ضروري على الجهات المسؤولة مراعاته لكي يمكن استخدام هذا التباين في تعضيد الأجزاء بعضها للبعض الآخر بوسائل علمية واتصال فعال وكفوء.

Abstract

Ethnic and Cultural Diversity

Solidarity or Contradiction

Muafak Waisi Mahmood [*]

The subject of ethnic and cultural dliversity is usually discussed with in political frame. And in this case it is subjected to unobjective requirements. This paper is an attempt to study the subject in social frame. Tough we confess the existence of difference among societies, this dose not mean hierarchical classification of groups. On the one hand there is no pure race and on the other hand group continuous communication has created cultural similarity among them. This seems more accurate among groups of a state of one policy. If we admit the existence of three levels which an individual restricts himself to their frames, which are ethnic groups, and cultural, (specially when they are not identical), and the political standard / level of the government, it is

(*) Ass. Prof. of cultural Anthropology – College of Arts University of Mosul.

possible to find identity among these levels despite their external differences.

If we plot the map of ethnic diversity on the map of cultural diversity and the two over the political map, we will notice that the cultural diversities will exceed the ethnic ones and vice versa. This means that the diversities resulted from cultural diversity may express diversities of an ethnic groups, and the race will be a unified base. Also if we add the factor of the political unity achieved by on government with legislative and executive abilities, we will have an additional factor to strengthen the approaches of meeting especially if a government managed to create general tendencies which prepare the political affiliation to surpass the restricted factors and create the chance for farther contact.

this requires comprehensive cultural basis devires its elements from cultural variety itself-And the situation will be more suitable when there is basic culture which dues other contrast with secondary cultures and in it, sense and origin unracial.